نبيل مطر*

فلسطين القرن السابع عشر في نظر فقيه مغربي وتاجر إنجليزي**

الدراسة التالية مقابلة بين روايتين تاريخيتين عن فلسطين هما: "الرحلة العياشية" التي كتبها الفقيه المغربي عبد الله بن محمد العياشي في سنة ١٦٦٣م، ورواية كتبها رحالة إنجليزي يدعى "ت. ب." في سنة ١٦٦٩م. وكان يُظن إلى زمن متأخر أن أقدم النصوص عن فلسطين هي "الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية" التي كتبها فقيه الشام عبد الغني النابلسي في سنة ١٦٩٠م.

وكاتب هذه المقالة يضاهي رحلة العياشي برحلة "ت. ب." كي يكتشف الفوارق الكثيرة بينهما، هما اللتان تختلف وقائعهما اختلافاً بيّناً. أمّا السبب فيعزوه الكاتب إلى التباين الثقافي والديني بين العياشي و"ت. ب." وإلى ثقافة كل منهما: فالعياشي فقيه، بينما "ت. ب." تاجر. ولذلك فإن العياشي يكتشف فلسطين، في حين أن "ت. ب." يبني فلسطين استناداً إلى الكتاب المقدس.

في سنة ١٥١٦، أصبحت فلسطين جزءاً من ولاية الشام. وخلال القرن الأول من الفتح، أجرى العثمانيون، بآلتهم الإدارية الشديدة الكفاءة، عمليات مسح للسكان، والضرائب، وإنتاج الطعام، والجماعات الدينية في فلسطين. ومع أن فلسطين لم تَغْدُ وحدة إدارية مستقلة، إلاّ إنها بقيت، كما لاحظ أوريل هايد، "مميزة من محيطها في بعض النواحي"،[1] وظل العثمانيون يستخدمون الاسم "فلسطين"، الذي عادة ما كان يُستخدم في المصادر العربية. وجرى المسح العثماني الأخير بين سنتَي ١٥٩٦ و١٥٩٧،[2] لتتناقص بعده المعلومات عن فلسطين في المصادر العثمانية تناقصاً شديداً.

وترتب على ذلك اضطرار مؤرخي الحقبة المبكرة من التاريخ الحديث لفلسطين إلى أن يلجأوا إلى

(*) أستاذ الأدب الإنجليزي في جامعة مينيسوتا. وقد نشرت مطبوعات جامعة كولومبيا في سنة ٢٠٠٩ كتابه: "أوروبا في عيون عربية، ١٥٧٨ – ١٧٢٧" (*Europe Through Arab Eyes, 1578-1727*)، وهو الجزء الثاني من ثلاثية عن العرب والأوروبيين في أوائل العصر الحديث.

(**) **المصدر**: *Jerusalem Quarterly,* vol. 43 (Autumn 2010), pp. 40-52.

وسبق أن نشرت *Journal of Palestine Studies*, vol. XXIX, no. 4 (Summer 2000), pp. 37-50 هذه المقالة بعنوان: "رحلتان إلى فلسطين القرن السابع عشر" (Two Journeys to Seventeenth-Century Palestine)، وقد أجرى الكاتب تنقيحات بسيطة عليها في *Jerusalem Quarterly*.

ترجمة: ثائر ديب.

لقد وجد المترجم، لدى مراجعته نص العياشي الأصلي، أن الاقتباسات وبعض المعلومات الواردة في النص الإنجليزي مختصران، فارتأى من الملائم إيرادهما كاملين كما جاءا في النص الأصلي.

روايات الرحالة، العرب أو العثمانيين أو الأوروبيين، طلباً للمعلومات. وكان الاعتقاد السائد، حتى فترة قريبة، أن الرواية العربية الوحيدة الباقية من القرن السابع عشر هي وصف عبد الغني النابلسي لفلسطين في سنة ١٦٩٠،[٣] لكن الذي تبيّن هو أن هنالك رواية أُخرى عن فلسطين كُتبت قبل رواية النابلسي بثلاثة عقود، وظلت مجهولة لدى المؤرخين المحدثين بصورة عامة،[٤] هي رواية أبي سالم عبد الله بن محمد العياشي (١٦٢٨ – ١٦٩٧).[٥] والعياشي فقيه مغربي جال في فلسطين بين صَفَر وربيع الثاني من سنة ١٠٧٤هـ (١٦٦٣م)، وقدّم أول وصف عربي لذلك البلد بعد الفتح العثماني.[٦] وتوفر روايته المكتوبة بأسلوب سيستخدمه النابلسي لاحقاً، معلومات مهمة عن فلسطين في النصف الثاني من القرن السابع عشر.

ومن الشائق، في هذا الصدد، أن نقارن رواية العياشي برواية رحالة إنجليزي يُشار إليه بالحرفين الأولين من اسمه، "ت. ب." نزل بفلسطين في سنة ١٦٦٩. وكانا وصلا إلى فلسطين قادمين من منطقتين نائيتين هما المغرب وإنجلترا، مع أن ت. ب. كان يعمل آنئذ في حلب في أحد مراكز شركة "المشرق التجارية"*. وكانت بغية كليهما هي السفر إلى "أرض مقدسة"، وقد حمل كلاهما معه ثقافته الدينية وكتبه المقدسة. وعلى الرغم من أهمية ضروب التشابه هذه، فإن ضروب الاختلاف تنمّ عمّا يبديه مسلم عربي وأنجليكاني إنجليزي من مختلف المواقف حيال ذلك البلد. ومن اللافت، على هذا الصعيد، أن العياشي لا ينفك يصلي في الأماكن المقدسة، ويلتمس الهداية، ويدرس كي يحظى بإجازة العلماء المتفقهين، في حين أن رواية ت. ب. لا تذكر في أي موضع من مواضعها أنه صلى، أو أنه سعى لغير الرصد والتثبت.

وسيتفحّص هذا المقال روايتَي هذين الرحالتين عن فلسطين، وما عنته الأرض "المقدسة" لكل منهما، هذا إن كانت قد عَنَت أي شيء.

رواية العياشي

لدى وصول العياشي إلى العقبة بعد أن حج إلى مكة والمدينة، يقرر زيارة "الأرض المقدسة المباركة" (٢: ٤٢٣)**، ولم يكن لديه في الأصل نية القيام بهذه الزيارة، خشية المشاق والأخطار في بلاد غير معهودة، وحيث المعارف فيها مفقودون. غير أن أرض فلسطين المقدسة بدت أقرب من أن تُفوَّت، وبدلاً من أن يقطع العياشي صحراء سيناء متبعاً طريق الحج المألوفة، بعث بكتبه وأمتعته مع بعض أصحابه في الركب إلى مصر، ثم فارق ركب المغاربة كي يتجه شمالاً. وكان العياشي، حين عزم على القيام بهذه الزيارة، استصحب معه كتاباً من شيخ رافقه من المدينة وكتبه إلى أبرز علماء غزة، وهو الشيخ عبد القادر بن الغصين*** يوصيه فيه بشأنه، ويعرّفه بحاله. وقد اعتمد العياشي، طوال رحلته، على كتب التوصية والتعريف هذه التي وفرت له أسباب الراحة، وضروب التواصل الديني، وإحساس الجماعة والألفة. وتكشف رواية العياشي عن تلك الشبكة التاريخية والفقهية التي قامت في

(*) "شركة المشرق" (Levant Company)، أو الشركة التركية، هي شركة إنجليزية الترخيص، تأسست في سنة ١٥٨١ كي تنظم التجارة الإنجليزية في بلاد المشرق، وأقامت عدداً من المراكز التجارية (factories) في حلب وإستانبول والإسكندرية وإزمير...، وكانت حلب المقر الرئيسي ومركز إدارة الشركة في الشرق الأوسط طوال تاريخها. (المترجم)

(**) وردت هذه الجملة في الصفحة ٤٠٤ من الجزء الثاني من "الرحلة العياشية" في طبعتها التي يستند إليها كاتب هذه المقالة، نبيل مطر، وليس في الصفحة ٤٢٣ كما يشير. وقد ارتكب الكاتب هفوات وأخطاء عديدة في اقتباساته من "الرحلة العياشية"، كأن يخطئ في الأسماء، أو يخلط بين الأشخاص، أو يخطئ في أرقام الصفحات التي يقتبس منها، وقد صوّبتُ النوعين الأولين من الخطأ وأشرتُ في الهامش إلى التصويب الذي أجريته، أمّا تصويب الأخطاء في الأرقام فقمت به من دون الإشارة إليه، وذلك كله بالعودة إلى المرجع الذي استخدمه الكاتب في الطبعة ذاتها. (المترجم)

(***) وليس عبد القادر بن القصير (Abd al-Qadir ibn Qasir)، كما ورد في الأصل الإنجليزي الذي كتبه نبيل مطر. (المترجم)

عالم الإسلام الذي لا طباعة فيه، وحيث كان الفقهاء يعرف بعضهم بعضاً من مكة إلى القدس ومن بعلبك إلى فاس.

وما إن انطلقت القافلة نحو غزة، حتى بادر الأعراب إلى أخذ "الغفر" أو الضريبة من المسافرين، وهو ما كانت تدفعهم إليه أوضاع عيشهم الرهيبة (ويجب أن نلاحظ أن المسافرين عادة ما كانوا يعانون ندرة الماء في الصحراء). غير أن الأعراب في رواية العياشي ليسوا أولئك اللصوص وقطاع الطرق الذين خلت قلوبهم من الرحمة وراحوا يُعملون يد السلب والقتل، كما اعتادت المصادر الأوروبية والعثمانية أن تصفهم، ذلك بأنهم حين أوقفوا القافلة وطلب قائدهم، "شيخ العرب"، المال، أوضح له شيخ القافلة، حسن المغربي، أن المسافرين حجاج فقراء لا شيء معهم فتركوهم (٢: ٤٠٦ – ٤٠٧). وواصلت القافلة سيرها صوب "سواحل الشام"، وبعد أن مرت قرب الرحيبة* بلغت غزة، وهناك راح العياشي يسأل عن ابن الغصين كي يعطيه كتاب التعريف والتوصية، فوجده في مدرسته وهي في قبلة المسجد الأعظم، وفيها خزانة كتب تُقرأ فيها "كتب علمية". وقد لفت انتباه العياشي ما رآه في غزة من "البساتين والأشجار والمنازل والقصور"، فطاف بها خمسة أيام يكلم أهلها، ووجدها "بلداً فسيحاً، ومنظراً رائقاً، وأسواقاً حافلة، وأسعاراً رخيصة، وفاكهة كثيرة" (٢: ٤٠٨). فهي على "رابية مشرفة على بساتين وجنّات من نخيل وأعناب (وفواكه كثيرة مما يشتهون)" (٢: ٤١٣). وفي وسط المدينة "المسجد الكبير" أو "المسجد الأعظم"، الذي بناه الحاكم المملوكي في القرن الرابع عشر:

على يمين قبلة الصحن مسجد كبير مرفوع على سواري كبيرة من الحجارة المنحوتة، وهو مفصول عن الصحن بشبابيك غريبة الصنعة ولا يصلّون فيه إلاّ في أيام الشتاء، ووجدنا الفعلة مجتهدين في تبييضه وتجديد نقوشه، وأمّا بنيانه، فلا يحتاج إلى تجديد لفخامته ووثاقه، وكان أصله كنيسة كغالب مساجد ذلك الساحل، إلاّ إن المسلمين لمّا ملكوا البلاد من يد الإفرنج صيّروها مساجد، وقد سمعت من بعض أهل غزة أن مسجدهم ذلك كان كنيسة في زمن المسيح عليه السلام (٢: ٤٠٨).

وكما كان العياشي مهتماً بوصف المسجد، التفت أيضاً إلى التفصيلات الإنسانية، وأشار إلى ما أخبره إياه الشيخ عبد القادر الغصين من أمر الشيخ أبي العباس المقري الذي جاء من مصر، وكان نزوله عند والد الشيخ الغصين الذي أكرمه غاية الكرم، وقال له يوماً أنه يشتهي الطعام المسمَّى عند المغاربة الكُسْكُس، وسأله إن كان في أصحابه من يُحسن صنعته؟ فقال له: والله لا يصنعه لكم أحد غيري. فأتوا بشاة لحم ودقيق وسمن وما يحتاج إليه، فصنع بيده طعاماً من أجود ما يكون من ذلك النوع (٢: ٤١٠)**. علاوة على ذلك، يشير العياشي بشيء من التعنيف إلى شيخ كان أولاً على مذهب الإمام الشافعي كأسلافه، ثم اتفق موت قاضي الحنفية في البلد، ولم يكن معه هناك مَن يقوم بوظيفة القضاء، فرُشِّح لذلك، فانتقل إلى مذهب أبي حنيفة بسبب ذلك. ويعلّق العياشي قائلاً: "وقد حذّر العلماء حتى الحنفية بأنفسهم من الانتقال في المذاهب لأغراض سوى ظهور ترجيح المنتقل إليه، سيما إن كانت لأغراض دنيوية" (٢: ٤١٣). لقد راقب العياشي الناس عن كثب وعلى نحو نقدي في بعض الأحيان، فقد ساءته رؤية الغزيين يمرون إلى السوق في صحن المسجد بنعالهم ويستعملون فيه الدخان الذي يشربونه (٢: ٤٠٩).

واكتشف العياشي المتشوق إلى زيارة الأماكن المقدسة أن في مدينة غزة مزارات كثيرة ومساجد فاضلة في أطراف البلد استولى الخراب على أكثرها (٢: ٤١٣)، ويبدو أن هجمات الأعراب المتكررة، والذين لم يستطع العثمانيون إخضاعهم، أخافت السكان واضطرتهم إلى الانتقال إلى وسط البلد طلباً

(*) وردت الرحيبة عند نبيل مطر، وفي هامش الصفحة ٤٠٧ من "الرحلة العياشية". (المترجم)

(**) ثمة خلط بين الأشخاص هنا لدى نبيل مطر، وقد جرى التصويب بالعودة إلى "الرحلة العياشية". (المترجم)

للأمن:

ومن المزارات التي زرناها ضريح الإمام الشافعي، رضي الله عنه، وهو في مغارة تحت الأرض قرب الجامع الكبير، وقد ذكر المؤرخون أنه وُلد بغزة. ومنها قبر هاشم بن عبد المطلب جد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وإليه تُنْسَب غزة إلى الآن، فيُقال: غزة هاشم، وهو في طرف المدينة من الناحية البحرية، وقد ذكر أهل السير أنه مات بغزة، إلّا إنه يبعد تعيين قبر عربي مات في زمن الجاهلية بأرض غربة في أرض العجم ويستمر تعيينه إلى زمننا هذا (٢: ٤١٣).

فعلى الرغم من تقوى العياشي وورعه، ها هو ينتقد ما بدا له أنه تاريخ غير محقق.

وقبل مغادرة العياشي غزة، كتب له الشيخ عبد القادر بن الغصين كتاباً إلى الرملة، وآخر إلى القدس وآخر إلى الخليل، يوصي به. وبعد ذلك سار شمالاً، "في أجنة غزة وكرومها"، ومر بعسقلان التي "كانت في العصر الأول من أمهات المدن" (٢: ٤١٤)، ثم وصل إلى خان يُسمَّى خان أردود، وهو منزل معلوم تنزله القوافل الآتية من مصر على "الطريق السلطانية" بين مصر والشام وإستانبول (٢: ٤١٤). وكانت هذه الخانات منتشرة في أرجاء الإمبراطورية العثمانية، ولم تكن مجرد فنادق بل مراكز لدفع الأتاوة. وكما هي العادة، فقد استقصى العياشي هنا أيضاً أمور المساجد والمزارات:

وبجانب هذا الخان مسجد فيه قبر ولي الله تعالى الشيخ إبراهيم المتبولي، وهو من أكابر الأولياء... وإلى جانبه من جهة القبلة مسجد صغير تحته مغارة يقال إن فيها قبر سلمان الفارسي، ونزلنا في ذلك المنزل وصلينا به الظهر والعصر والمغرب والعشاء، وقرأنا فيه من القرآن ما تيسّر، وكنتُ جهدت أن أختم فيه ختمة كان ابتداؤها من تلة المشرفة، فلم يتيسر ختمها إلّا بالمسجد الأقصى (٢: ٤١٤ – ٤١٥).

لقد كانت الرحلة عبر فلسطين رحلة عبر القرآن أيضاً.

متخذاً طريق مصر ـ الشام، واصل العياشي سيره إلى الرملة، إلى الشمال من مقصده الرئيسي، القدس، وكان متشوقاً إلى رؤية أمكنة أُخرى علاوة على ذلك المقصد. وفي الرملة، نزل عند واحد من فقهاء الشافعية [محمد بن أبي الوفاء الأشعري الحسيني]، وهو الذي كتب له ابن الغصين رسالة التوصية، ثم توجه معه إلى لقاء إمام الحنفية ومفتيهم، الشيخ خير الدين الرملي،* وسمع من هذا الأخير الحديث المسلسل بالأولية، وأوائل كل من الكتب الستة، ومسند الشافعي وأحمد وأبي حنيفة والسنن للدارقطني (٢: ٤١٥).[٧] كما سمع منه عن البلدة وأهلها، وأنه كان قد "غرس بيده المباركة ما يزيد على مئة ألف شجرة كلها أطعمت وأكل من ثمرها، وهذا أغرب ما يكون وما سمعنا بمثله." وقد اكتشف العياشي لاحقاً أن ابتداء الشيخ بالغرس كان من سنة ١٠١٧هـ (١٦٠٨م)، وأنه "أدرك الرملة وليس بها من الفاكهة إلاّ القليل، فلما اشتغل بالغرس تابعه الناس فصارت الآن من أكثر بلاد السواحل فاكهة" (٢: ٤١٦). وبنى هذا الشيخ في الرملة أيضاً ما يزيد على ألف عتبة، وأغلب خاناتها، ولذلك أُعجب به العياشي كثيراً، وأشار إلى أنه من خريجي الأزهر (٢: ٤١٦)، وامتدحه بقصيدة وصفه فيها بأنه "هو البحر في أي العلوم اختبرته" (٢: ٤١٧). وجال الشيخ محمد الأشعري بالعياشي في الرملة وأراه "الجامع الأبيض [الذي بناه ابن قلاوون في سنة ١٣٤٠]، وهو مشهور الذكر عند الصوفية. وقد ذكر الشعراني في كثير من كتبه أن جماعة من الأولياء كانوا يأتونه من الأقطار البعيدة للصلاة فيه" (٢: ٤١٩). وكان العياشي سبق أن زار في الرملة قبر الصحابي المشهور الفضل بن العباس،** وأشار إلى ما ذكره المؤرخون من "أنه مدفون

(*) وليس خير الدين أبو علي (Khayr al-Din Abu ‘Ali)، كما ورد عند نبيل مطر. (المترجم)

(**) وذلك بخلاف ما يذكره نبيل مطر من أن زيارة العياشي قبر الفضل بن العباس تلت زيارته الجامع الأبيض. (المترجم)

بفلسطين، وكانت الرملة قاعدة فلسطين في العهد القديم" (٢: ٤١٨).

أقام العياشي في منزل محمد الأشعري* ثلاثة أيام، وكما هي الحال في غير مكان من فلسطين، كان يُوصى بالعياشي من شيخ إلى آخر، ويستضيفه كلٌّ بدوره. وحين ترك الرملة، ذهب وصحبه إلى مدينة اللد وهي "مدينة مليحة فسيحة مجاورة لمدينة الرملة بينهما نحو من فرسخ من ناحية البحر، وفيها أسواق ومساجد ومزارات" (٢: ٤١٩)، ثم واصل مع صحبه المسير إلى القدس التي دخلوها عصراً، فمضوا مباشرة إلى قبة الصخرة للصلاة، ولم يُنزلوا حوائجهم بزاوية المغاربة إلاّ بعد ذلك، حيث بقيت هناك إلى أن أُعْطوا بيتاً داخل المسجد، فنقلوها إليه.

شعر العياشي بالراحة في القدس، لأن عدد الزوار المغاربة كان كبيراً جداً إلى حد إفراد زاوية إلى الغرب من القبة عُرفت باسم "زاوية المغاربة".[٨] ويصف العياشي المسجد المقدس بأنه:

آية من آيات الله في فخامة البناء وسعة المقدار، فيه أشجار كثيرة من التين والزيتون عظيمة، تحت كل شجرة مصطبة مبنية بالحجر المنحوت على قدر ما تظلّه أغصان الشجرة، فيه شكل محراب يجلس الناس تحتها للصلاة والقراءة، ويأوي إليها الفقراء المتجردون، وطوله من الجهة الشرقية ستمئة ذراع وخمسة وستون ذراعاً بالذراع المالكي، وأمّا الأروقة التي في داخله والبيوت التي في خارجه، فشيء كثير (٢: ٤٢١).

ويصف العياشي قبة الصخرة بأنها:

في وسط المسجد... ماثلة في الهواء مثمّنة الشكل، لها أربعة أبواب دون القبة، كلها نحو من خمسمئة قدم. وحيطان القبة وأرضها كلها مزخرفة بأنواع الفسيفساء المصبوغة بأصباغ مختلفة ونقوش عجيبة (٢: ٤٢١).

أمّا الصخرة المقدسة، فيشير العياشي إلى ما ذكره بعض المؤرخين من أنها كانت في زمن بني إسرائيل طويلة جداً، وأن النصارى قطعوها وبنوا منها كنيسة القيامة (٢: ٤٢١)،[٩] كما يشير إلى أن سور المسجد هو من بناء نبي الله سليمان، "بنته له الجن"، وأن حول باب المسجد الموالي لناحية وادي جهنم "موضع يقال إن فيه عرش سليمان، وهو من المزارات، وقد ذكر بعض العلماء أن الدعاء عنده مستجاب" (٢: ٤٢٤). أمّا قبر موسى فبعيد جداً، وكان العياشي كثير الاشتياق إلى زيارته و"لمشاهدة ما هناك من العجائب" (٢: ٤٢٥)، وقد أخبروه بكرامة وقعت هناك في بعض الأزمنة القريبة، عن أعرابي جاء إلى المشهد ونادى "يا نبي الله، يا كليم الله، إني فقير ومضطر، وقد أقبل الموسم ولا شيء عندي، فأعطني ما أنفق على بناتي، ثم مدّ يده إلى أول مغلق فانفتح، وكلما وقعت يده على مغلق انفتح حتى وصل إلى القبر وأخذ الستر الذي على القبر ليبيعه في أسواق الشام. وحين ألقي القبض عليه، قصَّ هذا الذي جرى، فأُطلق ولم يُعاقَب" (٢: ٤٢٥). والعياشي كان يحب أن يقصّ مثل هذه القصص.

ولم يكن اهتمام العياشي مقتصراً على جانب المدينة الإسلامي، فقد كان في القدس من النصارى أكثر ممّا كان في فلسطين مجتمعة.[١٠] ومثل غيره من المسلمين، كان العياشي يعلم أن النصارى يقدسون المدينة أيضاً، وقد رأى الحجر المنحوت الذي يُقال له مهد عيسى في الركن الشرقي من المسجد الأقصى، وهو الموضع الذي صلى فيه عمر لما دخل بيت المقدس. وكما هي العادة بين الإخوة في الدين، زار العياشي المزارات النصرانية، وخصوصاً تلك التي لها صلة بمريم وميلاد عيسى. وفي كنيسة في أصل الوادي أسفل طور زيتا، ثمة قبر مريم، عليها السلام، وقد تحرّج العياشي وصحبه من الدخول إليه (احتراماً)، وزاروه من خارج (٢: ٤٢٣). وأراد العياشي زيارة بعض المزارات النصرانية، لكنه لم يكن مرتاحاً لذلك في بعض الأحيان. يقول:

(*) وليس محمد الأشقر (Muhammad Ashqar)، كما يذكر نبيل مطر. (المترجم)

وغالب مزارات تلك البلاد هي بأيدي النصارى، فممّا بأيديهم بيت لحم الذي فيه مولد المسيح... ومنها قبر يونس بن متى، عليه السلام، في قرية قرب مدينة الخليل. وقد مررنا قريباً منه أيضاً، وزرناهما من بعيد تأثّماً من دخول معبد النصارى ولضيق الوقت (٢: ٤٢٤).*

لقد اختبر العياشي فلسطين من خلال القصائد والمشايخ، ومن خلال التاريخ والتقديس، والتقى هناك كثيراً من البشر وانخرط في جماعة من الصوفية والزهاد من أرجاء العالم الإسلامي، لم تحل بينهم حدود قومية أو لغوية. كان في فلسطين أممية تجتذب البشر من كل مكان: فقاضي الخليل الذي التقاه العياشي، كان الشيخ محمد النفاتي التونسي الذي "قدم من إستانبول متقلداً لقضاء القدس" (٢: ٤٢٥). وعادة ما يحرص العياشي على تسجيل أسماء مَن يلتقيهم، وعلى وصف الصالح والطالح بينهم.

وممن لقيه العياشي في القدس رجل يسمى شهاب الدين الحنفي المصري، قَدِمَ من مصر إلى القدس قبل العياشي بمدة، وأقام فيها نحو شهرين كان يدرّس فيهما الحديث، وكان العياشي، وهو في الرملة وغزة، سمع عنه، فاشتاق إلى لقائه، غير أنه حين دخل معه في نقاش بشأن فقه الحنفية، تبين له جهله وغباوته، وأن ما انتشر له من الصيت إنما هو لجهل أهل تلك الديار وقلة المحصلين بها، فضلاً عن المحققين. وبعد أن هزمه العياشي في الجدال، قام من ذلك المجلس مدحوراً، وزُعم أنه خرج راجعاً إلى مصر، غير أن العياشي لم يلبث أن وجده في الخليل، ثم في غزة، وبعدها في خان يونس، ففلسطين كانت أصغر من أن يضيع فيها مدّعٍ للفقه والتدين (٢: ٤٢٨ – ٤٢٩).

وفي أثناء إقامة العياشي في القدس، التقى كثيراً من شيوخ الصوفية والفقراء: إذ كان ثمة أتباع كثر للطرق الصوفية الكثيرة في المدينة، وقد دوّن العياشي أسماءهم ومجالات علمهم. وبعد أن أمضى أسبوعاً في القدس، غادر هو وصحبه إلى الخليل، وكان الحر شديداً في الطريق، فوضعوا على رؤوسهم جريد النخيل يتقون به حرّ الشمس، فلما رآهم قوم من أهل تلك المنطقة راحوا يعيّرونهم ويشتمونهم إذ ظنوا أنهم نصارى، لأن ذلك إنما يفعله النصارى في هذه البلاد، كما أخبرهم المكاري الذي كان معهم.** ومر ركب العياشي وصحبه ببيت لحم وزاروها من بعيد، وظلوا يسيرون يومهم في ارتقاء وانخفاض في غياض ذات أشجار مختلفة من شجر البادية (٢: ٤٥٧)، إلى أن دخلوا مدينة الخليل قرب العصر. وأنزلهم قاضيها نائب قاضي القدس في بيت في جوار المسجد:

فتوضأنا هناك ودخلنا المسجد للصلاة والزيارة، فزرنا قبر خليل الله سيدنا إبراهيم عليه السلام وقبور بنيه الكرام، سيدنا إسحق ويعقوب ويوسف عليهم السلام، وقبور أزواجهم، والقبور كلها في مغارة تحت أرض المسجد، وفي المغارة طاقة مفتوحة في وسط المسجد مثل البئر قد علّقت فيها مصابيح توقد ليلاً ونهاراً. وفي أرض المسجد شبابيك على شكل قبور مغطاة بستور من ديباج في مقابلة قبور الأنبياء التي في المغارة، إلّا قبر يوسف عليه السلام فإنه في آخر المسجد في ركنه الغربي في محل يُغلق عليه ولا يُفتح إلّا في أوقات مخصوصة (٢: ٤٥٧).

أمّا الشيخ الذي كانوا ينزلون في بيته فكان:

يتولى الإمامة في مسجد الخليل، ويقيم مجلس "الذكر" فيه في أدبار الصلوات كما هو عادة أهل تلك البلاد كلها، فقد استبدلوا من مجالس العلم مجالس الذكر، فقلما يخلو مسجد من مجلس

(*) هذه الكلمة هي التي يكتبها العياشي، لكن نبيل مطر يجعلها في ترجمتها الإنجليزية مجرد "تردد" (hesitated). (المترجم)

(**) يرد هذا الكلام في ص ٤٢٠ في "الرحلة العياشية"، وفي سياق الكلام على ارتحال العياشي من الرملة قاصداً القدس، وليس من القدس قاصداً الخليل كما يقول نبيل مطر، فضلاً عن أن المكاري يقول لهم: "فإن هذا إنما يفعله النصارى في هذه البلاد" وليس "فإن هذا إنما يفعله النصارى الأوروبيون" كما يقول نبيل مطر. (المترجم)

"ذكر" برفع الصوت والجماعات والإنشادات على هيئة سمّاع الصوفية، إلّا إن متعاطي ذلك أمّيون أرباب دنيا، فقلّ بذلك العلم في هذه البلاد والسواحل الشامية كلها، بقياس ما لم أر منها على ما رأيت (٢: ٤٥٩).

وبعد قضاء ثلاثة أيام في الخليل، تهيأ العياشي للرحيل، وانتظر، مع صحبه، رفقةً معها عدة فرسان ليسيروا معهم لأن "المحل مخوف، وغالب أهله متلصصون" (٢: ٤٢٦). وقد أخبرهم واحد ممن سافروا معهم من أهل الخليل "أن جماعة من متلصصي ذلك البلد جاؤوه وقالوا له: وافقنا على سلب هؤلاء المغاربة، فإذا شلحناهم أخذنا نحن الأمتعة وأخذت أنت ما معهم من الذهب." غير أنهم لم يتعرضوا لأي هجوم، وسار العياشي وصحبه "بين غياض وتلول وقرى، إلى أن فارقوا الجبل واستقبلوا أرضاً جرداء ذات مزارع وخصب كثير"، فساروا فيها بقية يومهم خائفين من الأعراب. وقرب المغرب نزلوا بقرية يُقال لها السوافير، وأضافهم أهلها ضيافة حسنة، ثم ارتحلوا بعدما صلّوا الصبح وساروا خائفين إلى أن قربوا من مدينة غزة، فلقوا هناك بيرقاً [رتبة عسكرية] معه خيل كثيرة خرجت من عند الباشا لغزو الأعراب (٢: ٤٦٢).

غير أن العياشي سرعان ما أدرك أن الحال تدهورت وباتت أسوأ: فالسبل تعذرت وانقطعت لاشتعال نار الفتنة بقيام الأعراب المخالفين بنهب سائر الضواحي، وعجز الباشا عن مدافعتهم. واللافت أن العياشي، على الرغم من خشيته، لا يحمل مطلقاً على هؤلاء الأعراب أو يشنّع عليهم، وقد قام مَن كان معه من الحجاج ممن لديهم قدرة على المشي، بالتسلل ليلاً بالسير بمحاذاة السواحل، إذ ليس معهم أمتعة يخافون عليها. أمّا العياشي وصحبه الذين لم يكن ذلك في وسعهم، فاكتروا أربعة من الحمير باثنتي عشرة قطعة من الفضة، وتوجهوا إلى خان يونس التي وصلوا إليها "بعد جهد وخوف كثير"، ونزلوا في علّية على باب الخان ثلاثة أيام، ثم ساروا وهم "خائفون من سلابة العرب"، وجاؤوا إلى العريش وهي "بلد كبير على ساحل البحر فيه نخل كثير وأجنة، وبه مسجد كبير وفنادق وأسواق، وهو آخر عمالة الشام وأول عمالة مصر، فقد ذكر المؤرخون في حدود مصر أنها من العريش إلى أسوان بلد بأعلى الصعيد، وذكروا في حدود الشام أنها من العريش إلى الفرات نحو مسافة شهر" (٢: ٤٦٨).[١١]

رحلة ت. ب.

بعد ستة أعوام على زيارة العياشي، سافرت جماعة من الإنجليز إلى فلسطين حيث زارت بعض الأماكن المقدسة التي سبق أن رآها المغربي. والرواية التي كتبها ت. ب. تتعارض كثيراً مع رواية العياشي وتُظهر الفارق في فهم هذين الرحالتين للأرض "المقدسة". بداية، كتب ت. ب. كي يقدم معلومات: فرحلته لم تكن رحلة تعبّد وتعلّق، وإنما بحثاً عن "الطرائف والنوادر"، ذلك بأن التجار البريطانيين في المشرق، وهو واحد منهم، كانوا في حاجة إلى وصف جديد. ومع أن الأرض كانت "أرضاً مقدسة"، إلاّ إن ت. ب. لم يقدّم لقرائه وصفاً لتجربة دينية، وإنما جولة مدروسة إلى الأماكن والقرى والممارسات الإدارية والدفعات المالية والطرق، وهذا هو السبب الذي دفع ناشراً غفلاً إلى نشر رواية ت. ب. في سنة ١٦٧٢ عندما وقع عليها. غير أنه حين وجدها شديدة الحياد ومثقلة بالمعلومات، أضاف مقدمة مسهبة تشدد على ما للأرض من قيمة دينية خلت منها رحلة ت. ب.

في ٣ أيار/مايو ١٦٦٩، انطلق ت. ب. وثلاثة عشر من مواطنيه، من حلب حيث كانوا يعملون لدى "شركة المشرق"، في رحلة إلى الأرض المقدسة دامت حتى ٢ تموز/يوليو من تلك السنة، وهي بعنوان: "رحلة إلى القدس: أو حكاية أسفار أربعة عشر إنجليزياً في سنة ١٦٦٩، من إسكندرون، إلى طرابلس، يافا، الرامة، القدس، بيت لحم، أريحا، نهر الأردن، البحر الميت؛ ثم إلى حلب من جديد، مع الوصف الدقيق لجميع الأماكن والأشياء الرائعة." وتُفتتح هذه الرحلة بخطاب إلى القارئ يشرح

غرضها، فنظراً إلى غياب أي روايات دقيقة عن فلسطين منذ رواية جورج ساندي في سنة ١٦١٥، وإلى كثرة "الأساطير" الكاثوليكية التي تصف فلسطين، شعر المؤلِّف بحاجة إلى كتابة رواية دقيقة (أي بروتستانتية) عن ذلك البلد.[١٢] والمدهش أن ت. ب. يبدو غير عالم بما كتبه مواطنوه من روايات عديدة عن فلسطين وبقية المشرق منذ بداية ذلك القرن: وليم بيدولف (١٦٠٩)؛ وليم ليثغو (١٦١٤، والطبعة الكاملة ١٦٣٢)؛ فايْنِس موريسون (١٥٩٦، نُشرت في سنة ١٦١٧)؛ السِّرْ هنري بلنت (١٦٣٦). ومع أن هؤلاء الرحالة كتبوا عن المشرق بصورة عامة، إلاّ إنهم جميعاً ضمّنوا كتبهم أقساماً ومقاطع عن فلسطين. ويبدو أنه كان لدى ت. ب. وكاتب مقدمة رحلته أجندة أُخرى هي تبيان أن الأرض لا تزال مسيحية، على الرغم من مرور الزمن والفتح الإسلامي، فاسم هذه الأرض، كما يؤكد، هو "الأرض المقدسة، كما سماها المسيحيون" (ص A3v)، وهي تعود إلى جماعة المؤمنين المسيحيين، على الرغم من وجود "المغاربة، والعرب، واليونانيين، واللاتين، والترك، واليهود"، وسواهم من الموجودين هناك (ص A9v). ولهذا، لا عجب في أن ت. ب. لم يصف ما رآه، وإنما ما دُوِّنَ في المصادر الكلاسيكية والمصادر المتعلقة بالكتاب المقدس، فيقول: "يهودا هي الجزء الرئيسي في فلسطين، وهي لا تزال على السعة ذاتها التي كانت لها عندما كانت مملكة يهودا" (ص A3r)، كأن العثمانيين أبقوا على الحدود التوراتية. "في هذه الأرض، ولا سيما في القدس وحولها، ثمة كثير من الأبنية الفخمة والرائعة، مثل بيت الرب، وقلعة اليبوسيين التي جلب إليها الملك داود تابوت العهد" (ص A5v)، وليس هناك ذكر لقبة الصخرة، ولا شيء عن المغاربة أو العرب أو أي أحد آخر. كما أن خريطة "فلسطين كما هي الآن"، التي يفتتح بها ت. ب. روايته، تُظهر المسجد الأقصى قزماً إزاء "كنيسة القيامة".

ليس ثمة فلسطين جغرافية عند ت. ب. وإنما "أرض مقدسة، أو أرض الميعاد"، كما تقول المقدمة المسهبة.

ولدى وصول ت. ب. ورفاقه الإنجليز الأربعة عشر إلى القدس في ٢٥ أيار/مايو ١٦٦٩، مضوا إلى دير اللاتين الذي استخدموه محلاً لإقامتهم: فكما نشد العياشي الشيوخ المسلمين الذين أقام لديهم، نشد الإنجليز الإقامة لدى المؤسسات المسيحية. وكما شعر العياشي بشيء من الحرج كضيف على إخوة في الدين يختلفون عنه في المذهب، شعر الإنجليزي البروتستانتي بشيء من الحرج كضيف بالأجرة عند الكاثوليك. غير أنهما، بصفتهما غريبين في أرض غريبة، لم يكن لديهما خيار إلاّ الاعتماد على المؤسسات الدينية في تأمين المأوى والحصول على المعلومات. وقد بدأت زيارة الإنجليز للقدس في ٢٧ أيار/مايو، وكان دليلهم فيها الآباء اللاتين الذين أهدوا "كلاً منهم كتاباً باللاتينية يحتوي على أناشيد مقدسة لكل موضع."[١٣] وهكذا اضطر ت. ب. مثل الرحالة الإنجليز الذين سبقوه، إلى رؤية فلسطين بأعين كاثوليكية، على الرغم من الدافع البروتستانتي وراء الرحلة. وإليكم كيف يتذكر زيارته للقدس:

ذهبنا إلى الأماكن التالية:

١ ـ *العمود الذي قُيِّد إليه مخلِّصنا حين جُلد.*
٢ ـ *السجن حيث حُبس.*
٣ ـ *الموضع حيث اقتسم الجنود ثيابه.*
٤ ـ *الموضع الذي وجدت فيه القديسة هيلانة صليبه.*
٥ ـ *العمود الذي قُيِّد إليه حين وضعوا إكليل الشوك على رأسه.*
٦ ـ *موضع الجمجمة، حيث صُلب.*
٧ ـ *الموضع الذي سُمِّر فيه على الصليب.*
٨ ـ *الموضع الذي مُسِح فيه.*
٩ ـ *ضريحه.*
١٠ ـ *الموضع الذي ظهر فيه لمريم المجدلية في هيئة بستاني.*
١١ ـ *كنيسة مريم العذراء، حيث ظهر لها أول مرة بعد قيامته.*

كان مثل هذا التعداد في جوهر تجربة ت. ب. وقد

جرى تحويل فلسطين إلى دليل سياحي بتسلسل منتظم. وقبل ما يزيد على نصف قرن، كان فايْنِس موريسون قارب فلسطين مسبقاً من خلال الأرقام: ففي وصفه مدينة القدس ومنطقتها، وضع قائمة بالمحطات التي توقّف فيها، وجميعها مواضع مسيحية/توراتية طبعاً.[١٤] وبذلك كانت مقاربته البلاد مقاربة منهجية شبيهة باتباع أرقام ملونة بارزة: إذ كان على الرحالة أن يتبع المخطط الجغرافي الذي تنطوي عليه الكتب المقدسة، و"يشطب" أسماء الأماكن التي ينتهي من زيارتها. وفي حين طاف موريسون وسرح في القدس، الأمر الذي مكّنه من أن يرسم لها خريطة أغنى كثيراً،[١٥] فإن كل ما بدا جديراً بالرؤية عند ت. ب. كان داخل الكنائس. ولذلك، فإنه حين خرج بعد يومين من وصوله، من متاهة الأسواق المملوكية، ووضع "علامة شطب" عليها، دليلاً على أنه زارها، لم يجد شيئاً جديراً بأن يُسجَّل. فالتفاعل الإنساني الذي لا بد من أن يكون قد خاضه، وروائح القدس وأصواتها، لا يعود لها أي أهمية ما دامت المدينة مدينة الكتاب المقدس لا مدينة معاصرة، وما دامت أثرية لا ملموسة أو عيانية.

وبعد سطرين فقط من ذكر ت. ب. زيارة السوق في أورشليم، نراه يقفز إلى رحلته إلى بيت لحم. ومن جديد يعدد ما رآه هناك: "بيت داود حيث تلصص على بَتْشيبع وهي تغتسل؛ بيت سمعان الكهل وبيت إيليا إلى يمين الطريق قليلاً؛ على مسافة ربع ميل ثمة بئر حيث رأى المجوس النجم..." وهكذا دواليك (ص ٣٤ – ٣٥). ما رآه ت. ب. هو العهدين القديم والجديد، وبعض المواضع الصليبية ("تلٌّ مثل قالب سكّر، حيث بقي الإفرنج أربعين عاماً بعد أن أُخرجوا من القدس") (ص ٣٥).

وحين يدخل كنيسة المهد، فإن الأماكن التي يزورها هي التالية:

١ ـ الموضع حيث وُلد مُخلِّصنا.
٢ ـ قبر القديس يوسف الذي كان خطيب مريم العذراء.
٣ ـ ضريح شهيد الأبرياء (St. Innocent).
٤ ـ الموضع حيث عاش القديس جيروم حين ترجم الكتاب المقدس إلى اللاتينية.
٥ ـ مُصلّى القديس جيروم.
٦ ـ ضريح القديس جيروم.
٧ ـ ضريح القديسة باولا.
٨ ـ ضريح ابنتها أوستاكياس.
٩ ـ ضريح القديس يوسيبيوس، رئيس دير بيت لحم.
١٠ ـ عدنا إلى كنيسة القديسة كاترينا، الذي يقال إن القديسة باولا هي التي بنته (ص ٤٠).

وفي وقت لاحق من ذلك اليوم، عاد ت. ب. ورفاقه إلى الموضع ذاته، وسجّل وصفاً مفصّلاً للمذود، وصورة القديس جيروم، والمكان الذي وقف فيه المجوس الثلاثة، والموضع حيث "اختتن مخلِّصُنا" (ص ٤٣). وكل اسم يرد في القائمة التوراتية يجري تفحّصه، وبذلك يكون أمر كنيسة المهد قد "تمّ".

وفي ٢ حزيران/يونيو كتب ت. ب. يقول: "بدأنا البحث عن الأماكن المقدسة التالية"، وما يذكره هو مواضع متفرقة مذكورة في العهدين القديم والجديد، أو في القصص والتواريخ الصليبية، وهي: موضع التضحية بإسحق؛ سجن بطرس؛ دير فرسان مالطا؛ هيكل سليمان؛ بوابة الحساب. وتتواصل القائمة إلى أن يصل ت. ب. إلى الموضع الثاني والأربعين: ينبوع بَتْشيبع، وكل ذلك في يوم واحد. ولا عجب في أن يشق على ت. ب. أن ينتظر خمس عشرة دقيقة عند ينبوع بَتْشيبع من أجل شربة ماء.

وبخلاف العياشي، وبخلاف ليثغو في وقت أبكر من ذلك القرن حين كان على الحجيج أن يستأجروا جنوداً أتراكاً لحمايتهم، فإن ت. ب. لا يشعر بأي خطر يتهدده في أي لحظة من لحظات رحلته. ومع ذلك، فإنه عندما يذكر العرب أول مرة، يصفهم بـ"الهمج" مباشرة (ص ١٦)، ثم بعد صفحات قليلة يؤكد أنهم "متحرشون" خطرون ولصوص (ص ٢٠). وغالباً ما تتخذ "اللصوصية" شكل دفعات مالية تُفرض عليه: أربع عشرة ليرة كي يرى كنيسة القيامة؛ ليرة واحدة كي يرى بئر إرميا (ص ٣١)؛

"بعض المال" كي يرى حقل الرعاة؛* ليرة كي يزور مغارة (ص ٣٨)؛ خمس ليرات كي يدخل بيت لحم؛ ليرة كي يدخل مغارة؛ ليرة كي يزور مشفى القديسة هيلانة؛ وهلم جراً. ولعل ت. ب. ما كان ليذكر السكان المحليين في روايته على الإطلاق لولا تدخلاتهم، وخصوصاً تلك الدفعات التي كانوا يطلبونها لقاء زيارة كثير من المواقع. وقد لاحظ أنه حين "يرى العرب إفرنجاً ذاهبين إلى مكان ما، فإنهم يسبقونهم إلى هناك كي يسيطروا على المكان، ويأخذوا منهم شيئاً ما" (ص ٣٥ – ٣٦).

وعلى الرغم ممّا شاهده ت. ب. من إجلال المسلمين للمواقع المسيحية، وملاحظته أن كلاً من المسلمين والمسيحيين يوقدون المصابيح في كنيسة القديسة مريم (ص ٥٦)، فإنه يظل على عدائه للعرب والأتراك: أولئك "الأوباش" الذين يقطن بعضهم قلعة زارها هو وصحبه (ص ٣٨). وهو يشير إلى أن المسلمين أجبروا الذكور من سكان قرية مسيحية على التحول إلى الإسلام (ص ٤٦)، وأن بعض الآباء عاش في كنيسة "إلى أن قتلهم العرب" (ص ٧٥). والمسلمون، بحسب ت. ب. عازمون أيضاً على محو أي أثر للمسيحية في تلك الأرض: فقد "حاول الأتراك أن يحطموا الحجر الذي كان يكرز عليه يوحنا المعمدان، لكنهم لم يقدروا" (ص ٤٥). وهو لا يتوقف مطلقاً كي يتساءل لماذا يرغب المسلمون في تحطيم حجر نبيّ يجلّونه مثل يحيى، وليس لديه متّسع للشك حين يكون العرب والأتراك هم المعنيون. وهو يؤكد أن ثمة هلالاً على جميع المساجد، أمّا قبّة الصخرة فعليها "صليب في الوسط: وقد أخبر الآباء أنها ما كانت لتقوم لولا وضع هذا الصليب" (ص ٥٣). ومع أن ت. ب. لم ير داخل القبّة، باعترافه هو ذاته، إلاّ إن ذلك لا يهم: فالحقيقة لا تقوم على الأدلة المادية، وإنما على العقيدة المحاربة.

ولا يبدي ت. ب. في أي لحظة أي اهتمام بأن يعرف الإسلام، أو سبب إجلال المسلمين المواقع المسيحية، فهو في ترحاله في قلب العالم الإسلامي، يعتبر الكتاب المقدس دليله، ذلك النص الذي يكفي تماماً للتثبت من المواقع الدينية، وتفسير الماضي والحاضر والمستقبل. وهو لم يسافر كي يعاين تقاطع الديانات أو اختلاف الثقافات، وإنما ليرى ثم يصف "كل ما هو لافت" (٦٤)، لا مواقع الإيمان والتحول الروحي.

فلسطينان: واقعية وافتراضية

لقد ارتحل كل من العياشي وت. ب. في أرض مقدسة وغريبة، ومع رحالة آخرين من أوروبا أو المغرب، وكان عليهما أن يقطعا مسافات بعيدة كي يبلغا فلسطين، حيث وجد كل منهما نفسه غريباً: فقد أتى العياشي، على الرغم من كل شيء، من بيئة تختلف عن فلسطين أشد الاختلاف في العوائد المأثورة، والفقه (المغاربة على المذهب المالكي، أمّا الفلسطينيون فعلى المذهب الشافعي، والعثمانيون على المذهب الحنفي)،[١٦] والهوية السياسية (المغرب هو البلد المسلم الشرق الأوسطي الوحيد الذي لم يقع تحت سيطرة العثمانيين)، وكانا نقديين حيال التقاليد غير المحققة، وكان كتاباهما المقدسان اللذان لم يكفّا عن قراءتهما طوال الرحلة، مصدر إلهامهما.

وعلى الرغم من بعض التشابه بينهما، فإن هذين الرحّالتين قدّما روايتين مختلفتين أشد الاختلاف. فالعياشي كان فقيهاً مهتماً بالدين والتاريخ، أمّا ت. ب. فكان تاجراً مهتماً بالتعداد ووضع القوائم. وكان الأول يتكلم العربية، أمّا الآخر فاعتمد على ترجمان/دليل يوناني لم يكن أميناً، كما اشتكى. وقد ذهب العياشي ومعه قرآنه وفي ذهنه السنّة النبوية، وذهب ت. ب. ومعه كتابه المقدس، وكان لكل كتاب من الكتابين ذلك التأثير المغاير إلى أبعد الحدود في كل من هذين الرحّالتين. فمع أن القرآن ليس فيه أي وصف جغرافي للقدس أو فلسطين، إلاّ

(*) إلى الشرق بنحو ٢ كم من بيت لحم، تقع قرية بيت ساحور حيث يوجد حقل الرعاة، وهو واحد من أهم الأماكن المقدسة لدى المسيحيين، حيث زار ملاك الرب رعاة كانوا هناك وأعلمهم بمولد يسوع. انظر: إنجيل لوقا (٨: ٢ – ١٠). (المترجم)

إن هنالك متناً كتابياً ضخماً عن هاتين المنطقتين في التراث المسمى "فضائل القدس"، والذي كان العياشي على ألفة به. وحين كان العياشي يسافر إلى الأماكن أو يزورها، فإنه كان يرى فيها مؤشرات إلى وحي إلهي يحثّ على التقوى والتعبد. ففي كل مكان، كان هو وأي فقيه آخر، مهما تكن جنسيته أو مذهبه، في حضرة الله. وبالمقابل، فإن الكتاب المقدس وفّر لـ ت. ب. أسماء الأماكن، وحدود المناطق، ودليل السفر، ومواقع معينة. وحين كان يشير إلى كل موقع ذُكر في العهدين القديم والجديد، أو في التراث الكنسي، لم يكن يقتصر على "إثبات" دقة الكتاب المقدس التاريخية ـ وهو ما كان يراه معظم الإنجليز في القرن السابع عشر ـ بل كان يؤكد أيضاً "إنجليزية" الأرض، ذلك بأن الكتاب المقدس كان إرث الإنجليز، المسيحيين الحقيقيين الوحيدين، وهو يؤكد وجود تلك الأماكن والقرى، وبذلك فهو يملّك الأرض أولئك الذين يتمسكون به، أي الإنجليز. وهكذا، فإن وراثة الكتاب المقدس تفضي إلى وراثة الأرض.

بيد أن الفارق الأهم بين العياشي وت. ب. لم يكن نتيجة التباين الثقافي والديني، وإنما جرّاء الاختلاف في مقاربة التاريخ. فالتاريخ بالنسبة إلى العياشي شيء يجب أن يُختبر ويُعاش؛ نوع من الاستمرارية التي تبدأ في الماضي وتمتد وصولاً إلى هنا والآن. وعلى الرغم مما كان قرأه عن كثير من مواقع رحلته، تلك المواقع ذات الأهمية في التراث الإسلامي، فإنه حين كان يزورها لم يكن يعتمد على قراءته فحسب، بل على الملاحظة المباشرة أيضاً، في استكشافه وكلامه وصَلاته. ومع أن فلسطين تثبت صحة النصوص التاريخية، إلا إن لها حاضرها أيضاً: فالعياشي كان يهتم بمزار من المزارات كاهتمامه نفسه بما في المنطقة من نبات، وهو يبدي من التقوى في جامع بقدر ما يبدي من القدرة على الحِجاج في مناظرة دينية، وكان يُظهر من التشوق إلى الكُسْكُس بقدر ما يُظهر حيال نظم قصيدة في مضيفه. فمعنى فلسطين إنما يكمن في "سيرورة" الاكتشاف (بحسب تعبير نيتشه)، تلك السيرورة التي يجمع فيها الماضي الجغرافيا، والبشر، والمذاهب الدينية المتنوعة، وخطر الأعراب.

أما بالنسبة إلى ت. ب. فالحاضر كان في خدمة جلال الماضي وخلوده. وبينما هو يتنقل من موضع إلى آخر، فإنه لم يكن يرى أي تسلسل تاريخي، أو أي معنى متماسك. فليس ثمة شعب في فلسطين لدى ت. ب. ولا طبيعة، ولا مجال اتصال بينهما، وهو لا يرى إلاّ ما قال له النص أن يراه. والمواضع التي زارها تبقى جزءاً من الماضي: لا يقتصر أمرها على استحالة جلبها إلى الحاضر، بل يتعدى ذلك إلى أنها لا تُفهم من دون السفر رجوعاً إلى الماضي. وفي مثل هذه الأرض المجردة، لا يعيش ت. ب. التاريخ، وإنما الأسطورة، ولا يختبر فلسطين، وإنما "أرض ميعاد" لم تتغيّر قط، فهي كانت كذلك على الدوام وستظل هكذا أبداً. وبدلاً من فلسطين الحية تقوم "أرض الميعاد" الافتراضية هذه، والتي وضع مخططها نصٌّ ملأ نفس الرحّالة تمسكاً بحرفية الكتاب المقدس، وعلى نحو يشبه كثيراً خريطة فلسطين التي يُحتمل أن يكون ت. ب. قد رآها في عمل أبراهام أورتيليوس، واضع الخرائط الهولندي المشهور، وصاحب أول أطلس حديث.[١٧] فكلّ ما رآه ت. ب. لا يتعدى دفتَي كتاب: وهو يفتقر إلى "القوة اللدنة"؛ تلك القدرة التي تمكّنه من أن يحوّل إلى نفسه ما هو ماضٍ وأجنبي،[١٨] كما أن كل موقع من مواقع القداسة إنما يبعث في نفسه مسافة الوصف الذي يرد في الكتاب المقدس، ويعيده في الزمن إلى الإصحاحات والآيات التي كانت جعلت ذلك المكان مقدساً. فالأرض نصّ، وبالإنجليزية، وهي بالنسبة إلى الإنجليز إرث حق وعدل.

لقد اختبر العياشي فلسطين، أمّا ت. ب. فبنى أُخرى. ■

المصادر

(١) Uriel Heyd, *Ottoman Documents on Palestine* (Oxford: Clarendon Press, 1960), p. 41.

(٢) Wolf-Dieter Hutteroth and Kamal Abdulfattah, *Historical Geography of Palestine: Transjordan and Southern Syria in the Late 16th Century* (Erlangen: Erlanger Geographische Arbeiten, 1977); Amnon Cohen and Bernard Lewis, *Population and Revenue in the Towns of Palestine in the Sixteenth Century* (Princeton: Princeton University Press, 1978).

(٣) عبد الغني النابلسي، *"الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية"*، تحقيق أكرم حسن العلبي (بيروت: دار المصادر، ١٩٩١). لكن هنالك روايات كثيرة عن فلسطين والقدس في الأدبيات المتعلقة بفضائل القدس، انظر: محمود إبراهيم، "فضائل بيت المقدس في مخطوطات عربية قديمة" (الكويت، ١٩٩٥).

(٤) غير أن هذا العمل كان معروفاً لدى مؤرّخين مغاربة لاحقين، انظر:
Évariste Lévi-Provençal, *Les Historiens des Chorfa* (Paris: Emile Larose, 1922), p. 262, Fn. 2.

(٥) المقتبسات كلها من "الرحلة العياشية"، تحقيق سعيد الفاضلي وسليمان القرشي (أبو ظبي، ٢٠٠٦).

(٦) فيما يتعلق بالروايات القروسطية التي كتبها عرب عن فلسطين، انظر:
Guy Le Strange, *Palestine under the Moslems: A Description of Syria and the Holy Land from a.d. 650-1500* (London: Committee of the Palestine Exploration Fund, 1890);
الأب ا. س. مرمرجي الدومينيكاني، "بُلدانيات فلسطين العربية" (بيروت، ١٩٤٧؛ أبو ظبي: منشورات المجمع الثقافي ووزارة الثقافة الفلسطينية، ١٩٩٧)؛ شكري عرّاف، "جُندا فلسطين والأردن في الأدب الجغرافي الإسلامي" (القدس: مطبعة الشرق العربية، لا تاريخ).

(٧) الحديث هو أقوال النبي محمد المسندة وسنن حياته، أمّا مسندا الشافعي وأبي حنيفة فهما، على التوالي، كتابا فقه وضعهما مؤسِّسا اثنين من المذاهب الإسلامية الفقهية الكبرى هما المذهب الشافعي والمذهب الحنفي.

(٨) أقام الزاوية أحد المحسنين في القرن الثامن كجزء من الوقف. انظر:
'Abd al-Latif Tibawi, *The Islamic Pious Foundations in Jerusalem* (London: Islamic Cultural Centre, 1978), pp. 12-13.
[والأغلب أن هذا الكتاب تُرجم إلى العربية بعنوان "الأوقاف الإسلامية بجوار المسجد الأقصى بالقدس"، تعريب عزت جرادات (عمّان، ١٩٩٨). (المترجم)]. والمؤسف أن هذه الزاوية، علاوة على حارة المغاربة بأكملها، جرفهما الإسرائيليون عن وجه الأرض في أثناء حرب ١٩٦٧.

(٩) قال مجير الدين الحنبلي في سنة ١٤٩٦: "كان الفرنج قد قطعوا من الصخرة قطعاً وحملوا منها إلى قسطنطينية ونقلوا منها إلى صقلية، وقبل باعوها بوزنها ذهباً"، انظر: "الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل"، تقديم محمد بحر العلوم (النجف: المطبعة الحيدرية، ١٩٦٧)، الجزء الأول، ص ٣٣٩.

(١٠) Cohen and Lewis, op. cit., p. 31.

(١١) فيما يتعلق بـ "حدود" فلسطين، انظر:
Haim Gerber, " 'Palestine' and Other Territorial Concepts in the 17th Century," *International Journal of Middle East Studies*, vol. 30, no. 4 (November 1998), pp. 563-572.

(١٢) T. [Thomas] B., *A Journey to Jerusalem*, Published by Nathaniel Crouch, p. A6v.
وأنا أستخدم هنا طبعة الكتاب هذه، وجميع الاقتباسات في هذا القسم مأخوذة من هذه الطبعة.

(١٣) لوصف مفصل لكتب الدليل والطرائق الدينية الكاثوليكية، انظر:
The "Prologue to the Reader" ("the hissing of snakish Papists") and chapters 7 and 8 in *The Rare Adventures and Painful peregrinations of William Lithgow*, edited and introduced by. Gilbert Phelps (London: Folio Society, 1974).

(١٤) Fynes Moryson, *An Itinerary Containing His Ten Yeeres Travell through the Twelve Dominions of Germany, Bohmerland, Swweitzerland, Netherland, Denmarke, Poland, Italy, Turky, France, England, Scotland and Ireland*, 4 vols. (Glasgow: James MacLehose and Sons, 1907), vol. 2, pp. 6ff.

(١٥) Ibid., vol. 2, p. 19.

(١٦) فيما يتعلق بالفوارق بين الإسلام المغربي والإسلام المشرقي، انظر:
Edmund Burke, "Morocco and the Near East: Reflections on Some Basic Differences," *Archives Européens de Sociologie*, vol. 10 (1969), pp. 75-83.

(١٧) Abraham Ortelius, *Theatrum Orbis Terrarum* (1570; reprinted in facsimile, Amsterdam: N. Israel, 1964), pl. 51, and the 1584 expanded edition, pl. 36.
وفي دراسات عن خرائطه لفلسطين انظر:
R.V. Tooley, "Maps of Palestine in the Atlas of Ortelius," *The Map Collector* (June 1978), pp. 28-31.

(١٨) Friedrich Wilhelm Nietzsche, *Untimely Meditations*, translated by R.J. Hollingdale, introduced by J.P. Stern (New York: Cambridge University press, 1983), p. 62.

صدر حديثاً عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية
والنادي الثقافي العربي ـ بيروت

فلسطين
وصراعنا مع الصهيونية وإسرائيل

مجموعة مقالات ومحاضرات، ١٩٥٧ – ٢٠٠٩

وليد الخالدي

٤٧٩ صفحة ١٥ دولاراً